إخوان الصفا
(القرن الرابع تقريبًا)

الجماعة والعصر :

يسمون أنفسهم إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وأهل العدل وأبناء الحمد، وقد تألفت الجماعة فى القرن الرابع على أرجح الأقوال، وكان موطنها البصرة، ولها فرع فى بغداد،ولم يُعرف من أشخاصها سوى خمسة يلفهم الغموض والشك، ولا يشف اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام، فقد ذكرت أسماؤهم وكأنها لم تذكر، لجهلنا أخبارهم وأحوالهم، فقيل إن أحدهم هو أبو سليمان محمد ابن معشر البستى المعروف بالمقدسى، ومنهم أبو الحسن على بن هارون الزنجانى، ثم أبو أحمد المهرجانى، فأبو الحسن العوفى، فزيد بن رفاعة (مقدمة الرسائل، ١٩٩٦، ج١، ص٥).

وإذا كانت الكثرة الغالبة ممن كتبوا عن إخوان الصفا قد اتفقوا على وجه التقريب على وجودهم فى القرن الرابع الهجرى، فإن "محمود إسماعيل" (ص ٢٥) انفرد بترجيح وجودهم حول منتصف القرن الثالث الهجرى، ولا يسمح المجال هنا بالبت فى هذه القضية، فهذه مهمة المتخصصين فى تاريخ إخوان الصفا وفلسفتهم .

وكما أشرنا أكثر من مرة، فإن القرن الرابع، الممتلئ بالنجوم الزاهرة من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمفكرين، كان قرنًا مليئًا بالفتن والتفكك وانتشار الفساد في الحكم، ولم تكن هذه الحالة سوى نتيجة طبيعية ومحتومة للثورات المتتابعة على الخلافة، فأغرقها أصحاب الأمر في الدماء عوضًا عن أن يتلمسوا ما ترتكز عليه من نقمة، فيزيلوا أسبابها، ويعدلوا النظم الفاسدة السائدة آنذاك، فالقلق الاجتماعى تسرب على كثير من الطبقات العاملة في المدن والمزارع، عربًا كانوا أم أعاجم، والثروات والسلطات تجمعت في أيدى جماعة من الفاسدين الذين فقدوا

كل إحساس بالعدل والاستقامة، فجعلوا مثلهم الأعلى في الحياة، إرهاق الضعفاء والتفنن في إذلالهم والمغالاة في الترفّه (جبور عبد النور، ص٦) .

ولقد تعددت الانتفاضات الاجتماعية منذ ابتداء العهد العباسى، فنشطت الجماعات الفارسية، ومن انضم إليها من العناصر الناقمة والمظلومة،وتبين لهذه الفئات بعد إخفاقها في تحقيق أهدافها بحد السيف، وتألب القوى المحافظة في وجهها، أن أفضل سبيل إلى بلوغ غايتها هو اعتمادها الدعوة السرية، وإعداد الأذهان لثورة فكرية تستتبع المكاشفة بحقيقتها بعد أن تكتمل لها عوامل النجاح .

ومن أشهر الجماعات السرية التي نشطت آنذاك جماعة إخوان الصفا، سعت في كسب الأنصار، وتأليبهم حولها، ووضعت المؤلفات الفلسفية الدينية، وبثتها فىطلاب الحكمة، وسهلت لهم الاطلاع على خفايا الشرائع،وهى تحتل في تاريخ الفكر الإسلامى مقامًا مرموقًا، وتمتاز بأن أعضاءها سعوا إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى، إلى جانب ما قاموا به من تبسيط العلوم ونشرها (جبور عبد النور، ص٧).

ولعل أبرز مصدر لبصيص ضوء على الجماعة ما أورده أبو حيان التوحيدى فى الليلة السابعة عشرة (الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص ٣) من أن زيد بن رفاعة كان متهمًا بمذهبه، وأن الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة سأل التوحيدى عنه، فأطرى التوحيدى الرجل وأضفى عليه صفات إيجابية متعددة، فسأله الوزير عن مذهبه، فأكد التوحيدى أن زياد بن رفاعة أقام بالبصرة زمانًا طويلاً وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ... فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة (الجماعة) قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به (الطريق) إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، (وذلك) أنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية (الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص ٤).

ويذكر "دى بور" (ص ١٢٣) أن إخوان الصفا قسموا جماعتهم إلى أربع طبقات: الطبقة

الأولى منهم شبان يتراوح عمرهم بين خمسة وثلاثين، تُنَشّأ نفوسهم على الفطرة، ونظرًا لأنهم تلاميذ فواجب عليهم أن ينقادوا لأساتذتهم انقيادًا تامًّا . أما الطبقة الثانية، فرجال بين الثلاثين والأربعين، تفتح لهم أبواب الحكمة الدنيوية، ويتلقون معرفة بالأشياء بطريق الرمز . والطبقة الثالثة أفراد سنهم بين الأربعين والخمسين، وهم يعرفون الناموس الإلهى معرفة كاملة مطابقة لدرجتهم،وهذه هى طبقة الأنبياء، حتى إذا نيف الرجل على الخمسين ارتقى إلى الطبقة العليا، وصار يشهد حقائق الأشياء على ما هى عليه، كالملائكة المقربين، وفى هذا المقام يكون فوق الطبيعة والشريعة والناموس .

وبالنظر إلى هذه المراتب الأربع، نرى بعد نظر الإخوان فى بث دعوتهم فى مختلف الطبقات لتعميم آرائهم وعقائدهم، واعتمدوا فى المرتبة الأولى على الشبان خصوصًا لسلامة صدورهم وشدة اندفاعهم فى تأييد ما تستمال إليه قلوبهم، مع ما هم عليه من مزية الارتياض بالطاعة وقبول العلم والإرشاد. ونجدهم فى رسائلهم يبعثون مندوبين من قِبلهم إلى أشخاص من ذوى الرئاسة والجاه والمال، ويوصونهم أن يتلطفوا فى دعوتهم واستمالتهم إلى مذهبهم ليكونوا لهم سندًا تشتد به قواهم، لما نالهم من الاضطهاد وسوء القالة، فاستتروا تقية من السلطان ورجال الدين، لئلا يتعرضوا لأخطار تؤذيهم ولا تجديهم فتيلا، فإنهم، وإن كانوا أهل الدعوات الباطنية، ولهم قرابة بالقرامطة أو الإسماعيلية، قد خالفوهم فى عقيدة الخروج على أولى الأمر، والاستنصار بالفتك والترويع والاستيلاء على البلدان لبلوغ غاياتهم، وأخمدوا الإخلاد إلى السكينة،وانتظار الوقت الملائم للثورة والعصيان، وتداعوا إلى العمل الصالح فىتثقيف العقول والنفوس بمذهب يجمع الفلسفة والدين موفقًا بينهما فى طريق المحبة وصفاء الأخوة، فيزول ما علق بالشريعة من الجهالات والضلالات،ويحصل الكمال للإنسان (مقدمة الرسائل، ج١، ص٨).

رسائلهم :

وقد دونوا فلسفتهم فى اثنتين وخمسين رسالة سموها رسائل (إخوان الصفا) وكتموا أسماءهم، وهى تمثل الفلسفة الإسلامية على ما كانت عليه فى إبان نضجها، وتشمل النظر فى

مبادئ الموجودات وأصول الكائنات إلى نضد العالم، فالهيولى والصورة وماهية الطبيعة والأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته، والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن، وعلم النبات وأوصاف الحيوان وتركيب الجسد، والحاس والمحسوس، والعقل والمعقول، والصناعات العلمية، والعدد وخواصه، والهندسة، والموسيقى، والمنطق وفروعه، واختلاف الأخلاق، وطبيعة العدد، وأن العالم إنسان كبير والإنسان عالم صغير، والأكوار والأدوار وماهية العشق، والبعث والنشور، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم،وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعى أو رياضى أو فلسفى أو إلهى أو عقلى (محمد لطفى جمعة، ص٢٥٤).

ويظهر من إمعان النظر فى تلك الرسائل أن أصحابها دونوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل، وفى جملة ذلك آراء لم يصل أهل هذا الزمان إلى أحسن منها، وفيها بحث مستفيض من قبيل نظرية النشوء والارتقاء .

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراًّ إلى بلاد الإسلام، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت بلاد الأندلس على يد أبى الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى .

والرسائل أشبه ما تكون بدائرة معارف شاملة لعلوم ذلك العصر ومرتبة بحسب طبقات الإخوان وتقدمهم فى المعرفة،وهى تتألف من إحدى وخمسين رسالة، ثم رسالة جامعة (وربما كانت الرسائل فى الأصل خمسين)، مختلفة فى نوع موضوعاتها ومصادرها، بحيث إن الذين اشتركوا فى تأليفها أو جمعها لم ينجحوا فى إبرازها منسجمة انسجامًا تامًّا . وبالإجمال ففى دائرة المعارف هذه عناصر فى فلسفات شتى، وهىتقوم على دعائم مستمدة من العلم الطبيعى، ولها من وراء هذا أغراض سياسية (دى بور، ص ١٢٤).

ويعترف إخوان الصفا أنفسهم بما فى مذهبهم من تلفيق، أى الاقتباس من مختلف المذاهب، فهم يرون أن يجمعوا حكمة جميع الأمم والديانات، وأنبياؤهم: نوح وإبراهيم، وسقراط، وأفلاطون، وزرادشت، وعيسى، ومحمد – صلى الله عليه وسلم، وعلى، وهم يجلون

سقراط، وعيسى وحوارييه، كما يجلون أبناء على، ويعدونهم شهداء مطهرين، استشهدوا فى سبيل عقيدتهم القائمة على العقل، وهم يرون أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة، فهو دواء للنفوس المريضة الضعيفة، أما العقول القوية فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة (دى بور، ص ١٢٦).

وتعتبر الرسائل هى المحاولة الأولى لتثقيف عامة الناس بفنون العلم والفلسفة، مع مراعاة أحوالهم فى صياغة الرسائل، فالإحاطة بجميع العلوم والمعارف، وتقديمها بإيجاز واختصار وتبسيط مسألة مبدئية فى مذهب إخوان الصفا، فقد جعلوا لكل لون من المعرفة غاية خلقية ذات طابع دينى، ولذلك حرص إخوان الصفا على أن يبينوا مقاصدهم المذهبية والتثقيفية، مع التنبيه إلى الأسلوب والمنهج اللذين اتبعوهما للوصول إلى غايتهم، فهم يربطون بين مذهبهم وكتابة الرسائل على هذا بقولهم: "ولما كان مذهب إخواننا الفضلاء الكرام، النظر فيها جميعًا والكشف عن حقائقها وأشيائها، أعنى العلوم الحكمية والنبوية جميعًا، وكان هذا العلم بحرًا واسعًا وميدانًا طويلاً، احتجنا أن نتكلم فى ما دعت الضرورة إلى عمل هذه الرسائل" (عبد الكريم قاسم، ص ٣٩).

ويعترف إخوان الصفا بأنهم ألفوا الرسائل كنماذج ومقدمات، فلم يتوسعوا فى بسط قضاياها، بقولهم: "واعلم يا أخى أنا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة فى فنون الأدب وغرائب العلوم وطرائف الحكم، وكل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج". ويبرر الإخوان هذا الأسلوب بالقول: "عملنا هذه الرسائل وأوجزنا القول فيها شبه المدخل والمقدمات، لكى ما يقرب على المتعلمين فهمها، ويسهل على المبتدئين النظر فيها".

ومن الملاحظ أن الرسائل كتبت بأسلوب سهل قريب من الأفهام، على ازدحامه بالكلمات الفنية والتعابير الفلسفية، وتوخى أصحابه الوضوح والاختصار .

كذلك فقد ساقوا آراءهم على درجات مختلفة من التعمق والتبسط، بحسب الأشخاص الذين سيقرءون هذه الرسائل من حيث المقدرة العقلية، ومن حيث اتجاههم الفلسفى، كأن يكونوا شاكّين أو علماء أو دهرية أو متفلسفة (عمر فروخ، ص ٣٨).

ولما أدرك إخوان الصفا أن الناس طبقات خاطبوهم بالرمز، حتى يفهم عنهم من يفهم بقدر ما يستطيع أن يفهم .

والكتابة عن طريق الرمز تقتضى أن يضرب الكاتب الأمثال ويورد القصص والحكايات، حتى يقرب مقاصده إلى الأفهام من غير أن يصرح.

وما داموا يكتبون لجميع الطبقات – وأكثرها من العامة – فهم مضطرون إلى تقديم المقدمات بين يدى البحوث، وهذا النوع من الكتابة يقتضى الاستطراد (عمر فروخ، ص ٣٩).

كذلك رصع الإخوان رسائلهم بالأمثال والحكم، وبالأشعار العربية في الأكثر والفارسية في الأقل، وربما كان بعضها لهم .

مصادر علوم إخوان الصفا :

وقد ذكر إخوان الصفا فى رسالتهم الثانية أن علومهم مأخوذة من أربعة كتب :

– **أحدها،** الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات.

– **الثانى،** الكتب المنزلة التى جاء بها الأنبياء، مثل التوراة والإنجيل والفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحى من الملائكة وما فيها من الأسرار .

– **الثالث،** الكتب الطبيعية، وهى أشكال الموجودات بما هى عليه الآن من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، وحركات الكواكب، ومقادير أجرامها وتصاريف الزمان واستحالة الأركان، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدى البشر، كل هذه صور وكنايات وآلات على معانٍ لطيفة وأسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معانى بواطنها من لطيف صفة البارى جل ثناؤه .

– **الرابع،** الكتب الإلهية التى لا يمسها إلا المطهرون الملائكة التى هى بأيدى سفرة، كرام برررة، وهى جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام وتحريكها

لها وتدبيرها إياها وتحكمها عليها وإظهار أفعالها بها ومنها، حالا بعد حال في ممر الزمان وأوقات القرانات والأدوار وانحطاط بعضها تارة إلى قعر الأجسام وارتفاع بعضها تارة من ظلمات الجثمان وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان وحشرها إلى الحساب والميزان، وجوازها على الصراط ووصولها إلى الجنان أو حبسها فى دركاتها الهاوية والنيران أو مكثها فى البرزخ أو وقوفها على الأعراف (محمد لطفى جمعة، ص ٢٥٩).

أما المصدران الأولان فمعروفان : كتب الفلاسفة، ثم كتب الأنبياء، وأما المصدران الآخران فمرموز عنهما فقط "ملاحظة عالم الطبيعة لامادى"، ثم "التأمل في عظمة العالم والاستلهام مما في العالم من الأمور التي يعيا على العقل حدّها والإحاطة بها".

الإطار الفلسفى :

ينتمى إخوان الصفا إلى مجموعة المفكرين ذوى الرؤى الفلسفية الشاملة، مثل ابن سينا والغزالى، ومثل هؤلاء يصعب فهم ما صدر عنهم من آراء وأفكار تربوية قبل تأمل الإطار الفلسفى العام الذى صدروا عنه، على أن تكون هذه الوقفة أقرب إلى أن تكون "إطلالة" عامة، بغير تفصيلات .

اللـه :

الإيمان بالله – تعالى– قضية مركزية لدى فلاسفة الإسلام، ولا غرابة فى ذلك، فالدين كان هو الحاكم وهو المركز والمؤثر الأكبر فى كل ما كتبوا .

وقضية الألوهية ليست بعيدة عن الفكر التربوى، بل هى أبرز أسسه الفلسفية، بناء على الموقف فيها، تتحدد كثير من الآراء والأفكار التربوية .

وقد حرص إخوان الصفا قبل حديثهم عن فكرة الألوهية أن يقدموا لذلك بالحديث عن القوى المدركة وعن موضوعات إدراكها، ليبينوا أن معرفة الله والوصول إليه من شأن بعض

openkanal.com

القوى الإنسانية، لا من شأن القوى المدركة كلها، فإذا كانت الحواس مختصة بالمحسوسات لا تدرك غيرها، فإنه من العبث أن نسعى لإدراك الله ومعرفته من خلال الحواس؛ لأنه – سبحانه وتعالى– ليس شيئًا ماديًّا، وليس من شأنه –عز وجل– أن يتشكل بأية صورة من صور المادة (عبد الكريم قاسم، ص ٥٩).

ويستدل إخوان الصفا على وجود الله بعدة أدلة، نذكر منها :

– **دليل العناية والغائية :** وخلاصته أن فى العالم نظامًا وانسجامًا وغائية، وأن الكون نسق من الوسائل والغايات، وهذا كله يفترض علة عاقلة هى التى تولت هذا التدبير، وإذن فإن للكون علة مدبرة؛ لأن المادة عاجزة عن تدبير نفسها بنفسها (عبد الكريم قاسم، ص ٦١).

– **دليل الوحدانية:** وهذا يسمى دليل "التمانع"، ويقوم على أن الكون يحكمه إله واحد، ولو كان له آلهة كثيرون لفسد، أو لاختل نظام الكون، ووجود نظام واحد دليل على وجود إله ينظمه، وهذا الدليل فى الواقع يقوم على نفس أسس الدليل الأول، وقداتفق جميع الموحدين على دليل التمانع أو على استحالة وجود إلهين لكل منهما خصائص الألوهية (عبد الكريم قاسم، ص ٦٣).

– **دليل الأنفس:** ويقدم إخوان الصفا دليلاً يعتمد على فكرة المشابهة والتماثل بين النفس فى البدن والله بالنسبة إلى الكون، فإذا كان النظام فى الجسم الإنسانى يدل على وجود قوة خفية غير مرئية، وهى النفس، التى تسير الجسم، فإن التدبير فى الكون يدل على وجود مدبر له، ومعنى هذا أننا إذا كنا نستدل على وجود النفس التى لا ترى بوجود تنظيم فى شىء محسوس وملموس مرئى، وهو الجسم الإنسانى، فإننا نستدل أيضًا على وجود خالق للكون لا يرى من وجود التدبير فى هذا العالم المرئى (عبد الكريم قاسم، ص ٦٥).

– **البرهان الفطرى:** وهو يسمى أحيانًا "البرهان النفسى" أو "الطبيعى" أو "برهان الإجماع"، ذلك أنه مأخوذ من فطرة الناس وإيمانهم العام الذى لا يتزعزع بوجود قوة عظمى تسيطر على هذا الكون وتسيره طبقًا لما تريد، وكيفما تشاء.

– **دليلا الحدوث والحركة:** وقد أقام إخوان الصفا هذا الدليل على أساس تصورهم للقدم والحدوث، فالنظرة فى الموجودات قياسًا للمتفكرين، فيعلمون أن العالم محدث مصنوع كائن بعد أن كان لم يكن، ويعلمون أن له خالقًا خلقه وأوجده وصوره، وركب أفلاكه وأدارها وأجرى كوكبه وسيرها، وإنما احتاج العلماء والعقلاء إلى الاستدلال بالشاهد على الغائب وقياس الجزء على الكل، على أن العالم محدث عند حيرة عقولهم (عبد الكريم قاسم، ص٦٧).

والخالق هو الذى قدر الأشياء والأعمال، ولا يقوى على فعلها سواه . وقدرة الإنسان صادرة عنه، وبإرادته نظم ذلك بدرايته التي لا يدركها بشرى، ولا يُعرف ما وراءها من حكمة دقيقة وعادلة، ذلك أن الإنسان يحكم على الأعمال كما تتراءى لحواسه، ولا يفهم كنهها، ولا يتعمق في سرها، فينسب إلى الخالق التصرف الكيفى، في حين أنه ينظم الأعمال بحيث تتكامل وتؤدى إلى نتيجة خيرة (جبور عبد النور، ص ٣٥)، ويذكرون على ذلك مثال نبى اجتاز مرة عين ماء في سفح جبل، وبعد أن شرب وتوضأ ارتقى الجبل ليصلى، فرأى فارسًا أقبل على العين، فشرب وسقى فرسه ومضى ونسى صرة فيها بعض المال. ثم أقبل راعٍ فرأى الصرة فأخذها . وجاء بعده شيخ حطاب بائس تعب وعلى ظهره حزمة من الحطب، فاستلقى يستريح، فقال النبى في نفسه: ألم يكن هذا الحطاب العجوز أولى بالمال من الراعى الشاب؟ بعد قليل رجع الفارس وطلب الكيس فلم يجده فاتهم الحطاب بأخذه وقتله ومضى . عند ذلك تساءل النبى عن الحكمة الإلهية في هذه القضية، فأوحى الله إليه أن أبا الشيخ قتل في الزمان الماضى أبا الفارس، وكان على أبى الفارس دين لوالد الراعى مقدار ما في الكيس (الرسائل، ج٤، ص ٤٣).

وهكذا، قد يجد الإنسان أمامه بعض الأحداث التى تبدو أمامه لا تستقيم مع منطق تفكيره الإنسانى، ومن ثم قد تذهب به الظنون مذاهب شتى، لكنه عندما يكون راسخ الإيمان، يثق بأن المولى – عز وجل– له بالضرورة حكمة من هذا وذاك، وربما خفيت علينا، فلا ينبغى أن نسارع فى الحكم .

الإنسان :

وهو القضية المحورية بالنسبة إلى استنباط موقف تربوى من فلسفة أى فيلسوف، والإنسان موضع مشترك بين الفلسفة والتربية، سواء من خلال بيان لموقف الفيلسوف من "النفس" الإنسانية، أو من خلال موقفه من التكوين الكلى للإنسان .

وهنا نجد إخوان الصفا لا يختلفون عن الكثرة الغالبة من فلاسفة المسلمين ومربيهم فى النظرة الثنائية للإنسان، مع ما يترتب على هذا من نتائج سواء فى مجال الأخلاق أو التربية، ومن ثم فكون الإنسان عند إخوان الصفا يضم بين جناحيه عنصرين متناقضين: الجسم والنفس أو الروح، من حيث الخصائص والصفات يصبح من الضرورى أخذ هذا بعين الاعتبار، فما يحمله الإنسان من عناصر بدنية، يعنى أنه يحمل فى طياته رغبة جامحة فى الاستمرار فى الدنيا، متطلعًا إلى أن يعيش أطول فترة ممكنة، مستمتعًا بما فى الدنيا من متع وملذات وأغراض. لكنه من ناحية أخرى يحمل روحًا ونفسًا من طبيعة مختلفة تمامًا، تدفعه بقوة إلى التطلع إلى الدار الآخرة .

ويعرف الإخوان النفس بأنها "جوهرة روحانية سماوية نورانية حية بذاتها، علاّمة بالقوة، فعالة بالطبع، قابلة للتعاليم، فعالة فى الأجسام، مستعملة ومتممة للأجسام الحيوانية والنباتية إلى وقت معلوم، ثم إنها تاركة لهذه الأجسام ومفارقة لها وراجعة إلى عنصرها ومعدنها ومبدئها كما كانت (نادية جمال الدين، ص ١٦٤).

وقد اهتم إخوان الصفا اهتمامًا ملموسًا بالنفس، مما دفعهم أن يعرضوا عدة براهين حتى يثبتوا جوهريتها، ويؤكدوا أن جوهرها أشرف من جوهر الجسد، ذلك أن النفس عندهم "هى المحركة للجسم والمكسبة به الحياة والقدرة، وهى المصورة فيه الأشكال المتحكمة عليه المتصرفة بحسب ما يتأتى فى شخص واحد من الأجسام الكليات والجزئيات" (نادية جمال الدين، ص ١٦٥).

وعلى الرغم مما أوله الإخوان من عظيم تقدير للنفس، إلا أنهم أقروا أنها تظل بحاجة إلى الجسد، حيث لا يمكن أن تكتمل فضائلها إلا بواسطته، وذلك أن النفس لا تستطيع معرفة

حقائق المحسوسات ولا يمكنها تصور معانى المعقولات، ولا تقدر على عمل الصنائع، ولا أن تتخلق بالأخلاق الحميدة إلا عن طريق الجسد طوال حياته، وحتى آخر العمر (نادية جمال الدين، ص ١٦٥).

لكنهم من ناحية أخرى يرون أن النفس مبتلاة بالجسد من حيث ما ينزع إليه من ماديات تغرى كثيرين، فينغمسون فيها ويبتعدون عن عالم الروح والملأ الأعلى، ولذلك بذلوا جهدًا ملحوظًا للتنبيه على المتعلم أن يبذل قصارى جهده للعناية بالنفس، وهذا ما يفسر قولهم، فيما نقلته نادية جمال الدين (ص ١٦٦) "فهل لك يا أخى بأن تنظر لنفسك وتسعى فى صلاحها وتطلب نجاتها وتفك أسرها وتخلصها من الغرق فى بحرالهيولى وأسر الطبيعة وظلمة الأجساد، وتخفف عنها أوزارها وهى الأسباب المانعة لها من الترقى إلىملكوت السماء والدخول فى زمرة الملائكة .."

وهذه الثنائية التى يتكون منها الإنسان، والتى تشير إلى تناقض بين المكونين يعيش الإنسان عالمًا من التناقضات التى هى سنة من سنن حياته وأساسًا لا يمكن التغافل عنه، وهكذا يفكر وينشغل بالموت والحياة، والنوم واليقظة، والبخل والسخاء، والفقر والغنى، والحق والباطل، والخير والشر، والتذكر والنسيان، والصحة والمرض، والصدق والكذب، والقبح والجمال، والجبن والشجاعة، والألم واللذة، والصواب والخطأ .. وهكذا (الرسائل، ج١، ص ٢٥٩).

ومن العسير تصور أن تنسب هذه الخصال إلى الجسد وحده أو إلى النفس وحدها "ولكن إلى الإنسان الذى هو جملتها والمجموع منهما، وآية ذلك أن الإنسان حى مائت، فحياته من قِبل نفسه وموته من قبل جسده، وهكذا نومه من قِبَل جسده ويقظته من قبل نفسه، وهكذا قل بالنسبة إلى الكثرة الغالبة من أحوال الإنسان، بعضها من قِبَل الجسد وبعضها الآخر من قبل النفس، ومثال ذلك عقله وعلمه وحلمه وتفكره وسخاؤه وشجاعته وعفته وعدله وحكمته وصدقه وصوابه وخيره وما سار على نهجها من الخصال المحمودة، فكلها من قِبَل نفسه وصفاء جوهرها، أما أضدادها فهى من قبل جسده .

ومع ذلك فإن هذا المنظور الثنائى للإنسان ليس مطلقًا لدى الجماعة، ذلك أنهم فى الوقت

نفسه سلموا بالاختلافات القائمة فى القدرات والاستعدادات الشخصية لدى كل منا . صحيح أنه لا يمكن إنكار فطرية الكثير من الخصال، لكن من الصعب إنكار ما يكون من ميول واختيارات تتباين من شخص إلى آخر، ولعل هذا ما نلاحظه فى الحياة العامة التى نعيشها، فهناك من تيسر له قدر من الصنائع والحرف، وآخر أسباب العلوم والآداب، وآخر تيسر له أسباب العمل والتصرف، وآخر أسباب التجارات والبيع والشراء، وآخر أسباب الملك والسلطان، وآخر أسباب البطالة والفراغ (الرسائل، ج١، ص ٣١٥).

ولم يقتصر تسليم إخوان الصفا على تنوع الاستعدادات العلمية والعملية، حيث امتد هذا للقول كذلك بتنوع الاستعدادات الأخلاقية، ومن هنا جاء قولهم: "اعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه أن الأخلاق المركوزة (الموروثة) فى الجبلة هى تهيؤ ما فى كل عضو من أعضاء الجسد يسهُل به على النفس إظهار فعل من الأفعال، أو عمل من الأعمال، أو صناعة من الصنائع، أو تعلم علم من العلوم، أو أدب من الآداب، أو سياسة من غير فكر ولا روية، مثال ذلك أنه متى كان الإنسان مطبوعًا على الشجاعة فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المخوفة من غير فكر ولا روية . وهكذا من كان مطبوعًا على السخاء يسهل عليه بذل العطية من غير فكر ولا روية، وهكذا متى كان الإنسان مطبوعًا على العفة، سهل عليه اجتناب المحظورات من غير فكر ولا روية، وهكذا من كان مطبوعًا على الاعتدال، سهل عليه الحكومة فى الخصومات، والعدل والنَّصفة فى المعاملات، وعلى هذا المثال والقياس سائر الأخلاق والسجايا المطبوعة فى الجبلة المركوزة فيها، إنما جعلت لكى ما يسهل على النفس إظهار أفعالها وعلومها وصنائعها وسياساتها وتدبيرها بلا فكر ولا روية . وأما من كان مطبوعًا على الضد من ذلك، فهو يحتاج عند استعمال هذه الخصال، وإظهار هذه الأفعال، إلى فكر وروية، واجتهاد شديد، وكُلفة، ولا يفعل الإنسان هذه الأمور إلا بعد أمر ونهى، ووعد ووعيد، ومدح وذم، وترغيب وترهيب" (الرسائل، ج١، ٣٠٥).

وإذا كان لجواهر النفوس عند الله منزلة وكرامة ليست لجواهر الأجسام، وذلك لقرب نسبتها منه وبعد نسبة الجسد، فإن النفس لا تستتم فضائلها إلا إذا عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها، وإنما تستبين فضائل جوهرها إذا هى عرفت أحوال عالمها الذى هو صورة الإنسانية؛ لأن البارى

خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وجعل صورته مرآة لنفسه ليتراءى فيها صورة العالم الكبير (عبد الكريم قاسم، ص ١٧٤)، وذلك أن البارى لما أراد أن يطلع النفس الإنسانية على خزائن علومه، ويشهدها العالم بأسره، على أن العالم واسع كبير وليس فى طاقة الإنسان أن يدور فى العالم حتى يشاهده كله، فرأى أن من الحكمة أن يخلق لها عالمًا صغيرًا مختصرًا من العالم الكبير، ومثله بين يديها وأشهدها إياه، فقال عز من قائل فى سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ .

المعرفة :

والموقف من المعرفة هو كذلك من المناطق المشتركة بين التربية والفلسفة، فالتربية غاية أساسية لها أن يكتسب المتعلم كمًّا من المعرفة وفق أصول منهجية دقيقة، والفلسفة تتساءل عن مصادر المعرفة وإمكاناتها ووسائلها .

وإخوان الصفا خالفوا الرأى الشهير الذى فهمه البعض منسوبًا لكل من سقراط وأفلاطون والذى قضى بأن المعرفة تذكر والجهل نسيان، حيث كانت النفس تعيش فى عالم المثل بين حقائق الأشياء، ثم نسيتها لما تلبست بالجسد، لكنها يمكن أن تتذكر قدرًا منها عن طريق التعليم والتعلم .

فقد أحلّ إخوان الصفا الحواس محلاً أساسيًّا فى تحصيل المعرفة، وعبروا عن وجهة نظرهم المناقضة للموقف الذى فُهم عن أفلاطون بقولهم: "اعلم أن كثيرًا من العقلاء يظنون أن الأشياء التى تُعلم بأوائل العقول مركوزة، فنسيتها لما تعلقت بالجسم، فهى تحتاج إلى التذكار، ويسمون العلم تذكرًا، ويحتجون بقول أفلاطون : التعليم تذكر، وليس الأمر كما ظنوا، وإنما أراد أفلاطون بقوله: العلم تذكر، أن النفس علاّمة بالقوة، فتحتاج إلى التعليم حتى تصير علاّمة بالفعل، فسمى العلم تذكرًا. ثم إن أول طريق التعليم هى الحواس، ثم العقل، ثم البرهان، فلو لم يكن

للإنسان الحواس، لما أمكنه أن يعلم شيئًا، لا المبرهنات، والمعقولات، ولا المحسوسات ألبتة" (الرسائل، ج٣، ص ٤٢٤).

وبناء على هذه النزعة الحسية نحو المعرفة، أوضح إخوان الصفا تصورهم للعقل فكتبوا: "إن العقل الإنسانى ليس شيئًا سوى النفس الناطقة، إذا هو كبر وشاخ بعد أيام الصبا، وذلك أن النفس يوم ربطت بالجسد، أعنى الجنين فى الرحم، كانت ساذجة، لا علم لها من العلوم، ولا خُلق من الأخلاق، ولا رأى ولا مذهب، ولا تدبير ولا سياسة، ولا رياضة فى أدب، كما قال – سبحانه وتعالى– فى سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾، وإنما كانت جوهرة روحانية حية بالذات، علاّمة بالقوة، فعالة بالطبع، فإذا حصلت فيها رسوم المحسوسات التى تسمى أنواعًا وأجناسًا مصورة بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، فميزتها وتأملتها ونظرت فيها وعرفت أعيانها ومنافعها ومضارها، وجربتها واعتبرتها، سميت عندئذ عاقلة علاّمة بالفعل ..." (الرسائل، ج٣، ص٤٥٧).

وعلى أية حالٍ، فإن طرق المعرفة عند إخوان الصفا بناء على هذا تصبح متعددة، يجعلونها ثلاثًا (عمر فروخ، ص ٤٧) :

– أحدها طريق الحواس الخمس، الذى هو أول الطرق، ويكون جمهور علم الإنسان، وتكون معرفته بها (أى بالحواس الخمس) من أول الصبا، ويشترك الناس كلها فيها، وتشاركهم الحيوانات .

– والثانى، طريق العقل الذى ينفصل به الإنسان عن سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ .

– والثالث، طريق البرهان، الذى ينفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس، وتكون معرفتهم به بعد النظر في الرياضيات والهندسة والعلوم المنطقية .

ويظهر أن ثمة طريقين آخرين للمعرفة عند إخوان الصفا :

– **أحدهما:** الحدس أو قبول النفس ما يفيض عليها (من لدن الله) من العلوم والمعارف والأخلاق الجميلة، مثل ما يتفق لنفوس الأنبياء، وذلك علم أولياء الله أيضًا.

– **والآخر:** تعليم الله للناس، وذلك أن الله – سبحانه وتعالى– هو الذى يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون .

أما سبب اختلاف طرق المعرفة فراجع إلى اختلاف "ماهية المعروفات"، فمعرفة الأشياء المادية الحسية تكون عن طريق الحواس الخمس، وأما ما كان أشرف من النفس وأعلى، فيعرف عن طريق البرهان (عمر فروخ، ص ٤٨).

وحتى يحسن المتعلم التعلم، وكذلك حتى يجيد العالم تحصيل العلم، فإن الأمر يكون أجدى وأقرب إلى الإجادة لو أحسنا طرح التساؤلات، وهى مشكلة على درجة عالية من الأهمية تنبه إليها إخوان الصفا، فوفقًا لشكل السؤال وتوجهه ودقته تتحدد الإجابة، وأن نقول الإجابة، فنحن نقف أمام الحصيلة التى بها نتعلم ونعرف .

وقد حدد الإخوان تسعة أنواع من الأسئلة : هل هو ؟ ما هو ؟ كم هو ؟ كيف هو؟ أى شىء هو ؟ أين هو ؟ متى هو ؟ لم هو ؟ من هو ؟ (الرسائل، ج١، ص ٢٦٢)، وفسروا طبيعة كل أداة كما يلى :

هل هو ؟ سؤال يبحث عن وجود شىء أو عدمه، والجواب يكون غالبًا : نعم أو لا .

ما هو ؟ سؤال يبحث عن حقيقة الشىء، وحقيقة الشىء تعرف بالحد أو الرسم، وذلك أن الأشياء كلها نوعان : مركب وبسيط، فالمركب، مثل الجسم، والبسيط مثل الهيولى والصورة. والأشياء المركبة تعرف حقيقتها إذا عُرفت الأشياء التى هى مركبة منها، مثال ذلك، إذا قيل : ما حقيقة الطين ؟ فيقال : تراب وماء مختلطان، من أجل هذا قال الحكماء فى حد الجسم : الطويل العريض العميق، فقولهم: الشىء، إشارة إلى الهيولى، وقولهم : الطويل العريض العميق، إشارة إلى الصورة، لأن حقيقة الجسم ليست بشىء غير هذه التى ذكرت فى حده.

وأما الأشياء التى ليست مركبة من شىء بل مخترعة، مبدعة كما شاء باريها وخالقها تعالى، فحقيقتها تعرف من الصفات المختصة بها، مثال ذلك، إذا قيل : ما حقيقة الهيولى؟ فيقال : جوهر بسيط قابل للصورة، لا كيفية له البتة . وإذا قيل: ما الصورة ؟ فيقال : هى التى يكون الشىء بها ما هو، وهذا ما يسميه الحكماء : الرسم، والفرق بين الحد والرسم، أن الحد مأخوذ من الأشياء التى المحدود مركب منها، بينما الرسم مأخوذ من الصفات المختصة بالمرسوم. وفرق آخر، أن الحد يخبرك عن جوهر الشىء المحدود، ويميزه عما سواه، والرسم يميز لك المرسوم عما سواه فحسب، ومن هنا فإذا سئل طالب العلم عن حقيقة شىء من الأشياء، ألا يستعجل الإجابة، بل ينظر أولاً: هل ذلك الشىء المسئول عنه: مركب أم بسيط؟ حتى يمكن أن تكون الإجابة دقيقة (الرسائل، ج١، ص٢٦٣).

وأما: **كم هو؟** فسؤال عن مقدار الشىء، وقد أشار الإخوان إلى أن الأشياء ذوات المقادير نوعان : متصل، ومنفصل، وراحوا يفرعون من كل منهما فروعًا متعددة .

وكيف؟ هو سؤال يبحث عن صفة الشىء، والصفات كثيرة الأنواع، بيَّنها الإخوان تفصيلا .

أما : **أى شىء؟** فسؤال يبحث عن واحد من الجملة أو من بعض من الكل، مثال ذلك أن يقال : طلع الكوكب، فيقال : أى كوكب هو ؟ لأن الكواكب كثيرة . وأما إذا قيل طلعت الشمس، فلا يقال : أى شمس هى ؟ إذ ليس من جنسها كثرة، وكذلك القمر .

وأما : **أين؟** فسؤال يبحث عن مكان الشىء، أو عن رتبته.

وأما : **متى؟** فسؤال عن زمان كون الشىء .

والسؤال : **لَم ؟** سؤال يبحث عن علة الشىء المعلول .

ويطرح السؤال : **من هو ؟** للبحث عن التعريف للشىء .

ما التعليم والتعلم ؟

وفقًا لما سبق أن أوضحه إخوان الصفا من نظرية للمعرفة، أكدوا أن "العلم ليس شيئًا سوى صورة المعلوم فى نفس العالم، وأن الصنعة ليست شيئًا سوى إخراج تلكم الصورة التى فى نفس الصانع ووضعها فى الهيولى" .

"واعلم يا أخى أن أنفس العلماء علاّمة بالفعل، وأنفس المتعلمين علاّمة بالقوة، والتعليم ليس شيئًا سوى إخراج ما فى القوة إلى الفعل، والتعلم هو الخروج من القوة إليه..." (الرسائل، ج١، ص ٣٩٩).

وفى موضع آخر كتب الإخوان يقولون: "وكل متعلم علمًا فإن صورة المعلوم فى نفسه بالقوة، فإذا تعلمها صارت فيها بالفعل، وهكذا كل متعلم صنعة فإن صور المصنوعات فى نفسه بالقوة، فإذا تعلمها صارت فيها بالفعل، والتعلم ليس شيئًا سوى الطريق من القوة إلى الفعل، والتعليم ليس شيئًا سوى الدلالة على الطريق، والأستاذون (المعلمون) هم الأدلاء وتعليمهم هو الدلالة، والتعلم هو الطريق، والمعلوم هو المطلوب المدلول عليه" (الرسائل، ج١، ص٢٩٤).

وعندما يتعلم الإنسان ليتجاوز بما تعلم حالة الجهل التى كان عليها يكون كم كان ميتا فدبت فيه الحياة "واعلم أن بالعلم تحيا النفوس من موت الجهالة، وبه تتنبه من نوم الغفلة كما قال عز وجل فى سورة الأنعام: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾"، فالعلم يهدى الإنسان إلى طريق ملكوت السماء، ويعين الإنسان على الصعود هناك، كما قال سبحانه فى سورة فاطر: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾، وعن أهل الجهالة قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ولما كان الإنسان مع من أحب، نصح إخوان الصفا الإنسان "بل كن من الذين أمرهم رسول الله فقال : كن عالمًا أو متعلمًا، أو تجالس العلماء أو تحب العلماء ..."(الرسائل، ج١، ص٤٠٠).

والتعليم والتعلم لابد أن يعتمدا اعتمادًا أساسيًّا على الحواس فى الخطوات الأولى، حيث إن أول ما يدرك الإنسان هو هذه "الأعيان" القائمة فى الدنيا، وأول ما يدرك الطفل هو الانطباعات الحسية المختلفة، ومن هنا جاء قولهم : "واعلم يا أخى بأن الحكماء لما نظروا إلى الموجودات، فأول ما رأوا الأشخاص مثل زيد وعمرو وخالد، ثم تفكروا فيمن لم يروه من الناس الماضين والغابرين، فعلموا أن كلهم تشملهم الصورة الإنسانية وإن اختلفوا فى صفاتهم من الطول والقصر والسواد والبياض والسمرة ... وما شاكلها من الصفات التى يمتاز بها بعضهم من بعض، فقالوا: كلهم إنسان، وسموا الإنسان نوعًا لأنه جملة الأشخاص المتفقة فى الصور المختلفة بالأعراض" (الر سائل، ج١، ص٤٠٦).

وأخذ الإخوان يسوقون الأمثلة لأنواع أخرى مثل الحمار، وغيره من الحيوانات "ثم تفكروا فى جميعها، فعلموا أن الحياة تشملها كلها، فسموها الحيوان، ولقبوها الجنس الشامل لجماعات مختلفة الصور وهى أنواع له . ثم نظروا إلى أشخاص أخرين كالنبات والشجر وأنواعها، فعلموا أن النمو والغذاء يشملها كلها، فسموها النامى، فقالوا : هى جنس، والحيوان والنبات نوعان له .." وهكذا .

إن هذا الترتيب للأنواع والأجناس يفيد القول بأن الإنسان فى معرفته يصعد من المحسوس الجزئى إلى المجرد الكلى، وبالتالى فإن المضمون التربوى يؤكد على البدء فى مراحل التعليم الأولى بما يحيط بالطفل من موجودات محسوسة فى بيئته .

وكان من الطبيعى أن تكون نتيجة إقرارهم بالأساس الحسى للمعرفة واكتسابها أن نلمس من الإخوان تقديرًا لأهمية الجسد بالنسبة إلى سعادة الإنسان، بحيث لا ينظرون إليه كما نظرت بعض الأديان السابقة والفلسفات نظرة ازدراء وتحقير، ومن هنا وجدنا جزءًا فى رسائلهم عنونوه بـ (فصل فى السياسة الجسمانية) حيث حثوا فيه على أن يحظى الجسم بالعناية وأن

نرفق به ونقيه من إغراقه فى الملذات فوق ما يطيق ويحتاج، حيث إن مثل هذا النهج المتطرف من شأنه أن يصيب الجسم بالعلة والمرض (الرسائل، ج٤، ص ٢٥٥).

هل معنى هذا أن الإخوان انشغلوا بالجسم عما وراء الجسم وفوقه وبعده ؟ كلا، فالغاية الأهم هى الأخلاق، حيث إن التربية بطبيعتها عملية أخلاقية، وما هذا الذى ألحوا عليه لحفظ الصحة الجسمية إلا لأنه لا قيام للصحة النفسية أو الروحية أو العقلية إلا بهذه الصحة المادية، كما هو ملموس، ومن هنا فقد كتبوا فصلا عنونوه بـ (فصل فى السياسة النفسانية) (الرسائل، ج٤، ص٢٥٨) ألحوا فيه على ضرورة توافر الأخلاق الرضية، والعادات الجميلة، والأفعال المستقيمة، بحيث يحرص المتعلم على أن يؤدى الأمانة إلى أهلها كائنًا من كان متولى وعدو، ويأخذ نفسه بحفظها، ويرعى حق من استرعاه حقها، ويحسن مجاورة جاره، وتصفى مودة صديقه، ويخلص المحبة لمحبه.

وللبيئة عند الإخوان أثر عظيم فى التربية، ذلك لأن "العادات الجارية بالمداومة" تقوى الأخلاق والسجايا، فإن كثيرًا من الصبيان إذا نشئوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم . وهكذا أيضًا كثير من الصبيان إذا نشئوا مع النساء والمخنثين والمعيوبين وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم ... إن لم يكن فى كل الخلق، ففى بعضه. وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى يتطبع بها الصبيان منذ الصغر إما بأخلاق الآباء والأمهات، أو بأخلاق الإخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء ..." (الرسائل، ج١، ص ٢٣٦).

وفى النهاية لا بد أن تكون غاية التعليم إصلاح جواهر النفوس وتهذيب أخلاقها وإعدادها للخلود فى الآخرة، وكل علم لا يؤدى إلى الآخرة فلا فائدة منه، ومن هنا جاء فى الرسائل (ج١، ص٧٥): "واعلم يا أخى، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن غرض الفلاسفة الحكماء من النظر فى العلوم الرياضية، وتخريجهم تلاميذهم بها، إنما هو السلوك والتطرق منها إلى علوم الطبيعيات، وأما غرضهم من النظر فى الطبيعيات فهو الصعود منها والترقى إلى العلوم الإلهية الذى هو أقصى غرض الحكماء والنهاية التى إليها يُرتقى بالمعارف الحقيقية".

لكن، للوصول إلى هذه المرتبة لا بد من اجتياز مراتب ومنازل أساسية، لعل أولها هو معرفة جوهر النفس، ذلك أن الإنسان لما كان مندوبًا إلى معرفة ربه، ولم يكن له طريق إلى معرفته إلا بعد معرفة نفسه، حيث قال – سبحانه وتعالى – فى سورة البقرة: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾، أى جهل النفس، وكما قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وقيل أيضًا: أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه، وجب على كل عاقل طلب علم النفس ومعرفة جوهرها وتهذيبها (الرسائل، ج١، ص ٧٦).

فريضة التعلم :

الخطوة المنطقية بعد أن عرفنا موقف إخوان الصفا من المعرفة، وتصورهم للتعليم والتعلم أن نعرض لما قالوه بالنسبة إلى ضرورة التعلم بحيث يكون فريضة، ومعنى أن يكون فريضة أنه ليس أمرًا اختياريًّا للمسلم أن يسير على طريقه أم لا، بل هو بحكم اعتبارات شتى سنشير إليها "واجب"، وهناك فرق بين أن نقول إن التعليم حق وأن نقول إنه فريضة، فالحق يمكن لك أن تطلبه، كما أن لك ألا تطلبه، بينما الفريضة ليس لك خيار في القيام بها، كما سبق أن قلنا.

فإذا كان المولى –عز وجل– قد فرض على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتركونها "لكن ليس من جميع مفروضات الشريعة، ومن أحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أكمل ولا أشرف ولا أنفع للقلب ولا أقرب له إلى ربه بعد الإقرار له والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه، من العلم وطلبه وتعلمه" (الرسائل، ج١، ص ٣٤٦) .

وقد استشهد الإخوان بحديث مطول نسبوه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من غير إسناد، لكننا نثبته على أية حال؛ لأن ما يتضمنه من معانٍ يتسق مع مجمل ما جاءت به السنة النبوية من مواقف تجاه العلم، وطلبه والتعليم والتعلم والحث عليهما، يقول الحديث :

"تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، فإنه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل

الخير، والأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والقرب عند الغرباء، والزين عند الأخلاء، ويرفع الله تعالى به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم، وأئمة في الخير تقتص آثارهم وتروق أعمالهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة فى خلتهم (صداقتهم)، وبأجنحتها تمسحهم، وفى صلاتها تستغفر لهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان فى البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه ...إلى آخر الحديث" .

وحتى يحبب الإخوان طلب العلم من قِبَل المسلم، بالإضافة إلى ما سبق، يؤكدون للمتعلم أن العلم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة، أولها الشرف وإن كان دنيًّا، والعز وإن كان مهينًا، والغنى وإن كان فقيرًا، والقوة وإن كان ضعيفًا، والنبل وإن كان حقيرًا، والقرب وإن كان بعيدًا، والجود وإن كان بخيلاً، والحياء وإن كان صلفًا، والمهابة وإن كان وضيعًا، والسلامة وإن كان سفيهًا .

طرق التعليم :

ذهب إخوان الصفا إلى أن العلم يمكن الحصول عليه من عدة طرق، وتنوع الطرق يتسق مع حقيقة الأمور، فبعض الناس يميل إلى العلم عامة، ومنهم من يميل إلى علم دون علم، والعلوم نفسها أنواع ودرجات لا تليق كلها بكل إنسان، ولا يستطيع كل إنسان أن يتعلمها كلها، مما يوجب أن يبدأ المتعلم بتعلم ما لا يجوز أن يجهله .

ومن هنا يمكن أن نشير إلى أهم طرق التعليم عند الإخوان فيما يلى :

أولاً: بالفكر الذى تدرك النفس به الموجودات المعقولات (أسماء المعانى، والمعانى المفارقة للمادة، وما يقع وراء الحس، وحقائق الأمور والوجود)، ومن هذه الطرق أخذ الأنبياء – عليهم السلام– الوحى من الملائكة، وهذه أيضًا طريق الحكماء والفلاسفة الذين يستخرجون الصنائع بحكمتهم. ثم إن المعارف المأخوذة من هذا الطريق هى أشرف المعارف وأحكم العلوم (عمر فروخ، ص ١٤٦) .

ثانيًا: بالسمع الذى تقبل به النفس معانى اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة (أى عن طريق اللغة، فقد جعل إخوان الصفا الكلمات حوامل للمعانى، والمصدق بذلك يعتمد ما يخبره به غيره، وهذا فى الحقيقة، طريقة العامة الذين لا يستطيعون التفكير لأنفسهم) .

ثالثًا: بالنظر (بالبصر والرأى العقلى)، الذى تشاهد به النفوس الموجودات الحاضرة (إن النفس تستطيع، حتى بعد غياب المحسوسات أن توازن بين ما رأت أو سمعت أو لمست، وأن تستخرج منها كلها آراء وأحكامًا وأن تدرك حقائقها، وهذه طريق الخاصة الذين هم دون الحكماء والأنبياء).

ويؤكد الإخوان اختلاف النفوس فى تلقى أنواع العلوم وفى التصديق، ومرجع هذا ما عليه النفوس من تباين فى الطبائع، وما تمر به على طريق حياتها من تجارب وخبرات، وهذا يوجب أن تعامل كل نفس بما يتفق وما هى عليه من حال وما تملكه من استعداد، ومن الناس من لا يقبل إلا ما يقوم على برهان وحجة ودليل، ومن الناس من يتقبل ما يساق له من معلومات ومعارف واتجاهات وقيم، فى صورة شعرية، ومنهم من يمكن أن يتقبل ما يراه بناء على مجرد التقليد .

ولعل هذا ربما ما يفسر ترتيب الإخوان لرسائلهم وموضوعاتها، حيث راعوا فى هذا ما تصوروه عن درجات المتعلمين ومراتب الطالبين المستفيدين، فكما أن العلم لا ينبغى أن يبذل لمن ليس من أهله، أو لمن لا يعرف فضله، فكذلك لا ينبغى أن يحجز عن مستحقيه. وكذلك، مفروض ألا يرتقى المتعلم إلى درجة إلا إذا تأكدنا من تمكنه من تلك التى قبلها (عمر فروخ، ص ١٤٧).

فإذا ما تمكن المتعلم من إحدى هذه الطرق، وجب عليه أن ينتقل إلى مجالس أهل العلم والفضل فى المساجد والصلوات والمشاهد والأعياد، وإلى الأسواق والصنائع والأسعار؛ ليشاهد هذا العالم بما فيه من الجبال والسهول والوديان والبرارى، وليخبر مختلف خلق الله، سواء منهم الحيوان أو النبات أو المعادن، حتى يمكن له أن يتعرف على أحوالها، فكأن الإخوان بهذا

يريدون من المتعلم أن تتوسع دائرة خبرته التعليمية، فلا تقتصر على ما هو مسطور على صفحات الورق، ولا على ما هو مسموع من شفاه العلماء والمعلمين، وإنما تتعلم كذلك من خلال السياق المجتمعى، ومن خلال البيئة الطبيعية، فبمثل هذا النهج تتنبه نفس الإنسان من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة .

ولو تأملنا طريقة الإخوان فى التسويق لأفكارهم والدعوة إلى أفكارهم فسوف نجد طريقة مهمة لا بد منها فى بدايات طريق التعليم، ألا وهى استثارة الفضول والتشويق، فقد كان الداعية لجماعتهم أو المعلم يقوم بقراءة أجزاء من الرسائل على الوافد الجديد، بعد أن يكون قد خضع – ربما من حيث لا يدرى، وبطريقة غير مباشرة – لقدر من المراقبة والمعاينة حتى يكون هناك تقبل واستطاعة للسير على الطريق، فيقوم المعلم أو الداعية بمحاورته فى محتوى أجزاء من الرسائل، دون أن ينيله إجابة مرضية أو نهائية، مما يثير فضول الوافد الجديد ويدفعه إلى محاولة معرفة حقائق ما أثير أمامه من قضايا، أو يتوجه للبحث عن مزيد من التفصيلات، وقد جاءت صياغة الرسائل وتنظيمها وفقًا لهذا، ذلك أنهم ذكروا من كل علم فيها ما يقرب أن يكون مقدمات وممهدات، لعل هذا يدفع الأخ إلى أن يسعى للمزيد (نادية جمال الدين، ص ٣٥٠).

ومن طرق التعليم أيضًا : التدرج، وفقًا لنظريتهم فى المعرفة، وكيف أن العارف يبدأ من المحسوسات أولا، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا إلى أن يصل إلى أعلى من المجردات أو المعقولات، ولعل ما دفع إخوان الصفا، إلى أن ينهجوا هذا النهج من التدرج جملة أمور نشير إليها فيما يلى (نادية جمال الدين، ص ٣٥٦):

١- الاقتداء بسنة الله – سبحانه – فى تنزيل كتبه، حيث بدأ بالسور القصار لعلمه – سبحانه – أن النفوس تعجز عن قبول الأمور الإلهية دفعة واحدة .

٢- سيرة العلماء والحكماء الذين يبدءون أولاً بتهذيب النفس بالرياضات، حتى إذا انتهوا من ذلك انتقلوا إلى الإلهيات .. وهكذا وفقًا لمنطق التدرج .

٣- ما دلت عليه التجربة التى مروا بها، حيث إن المتعلمين لا يستطيعون أن يتقبلوا ما يلقيه إليهم المعلم دفعة واحدة، وإنما وفقًا لعدد متدرج من الجرعات .

خصال لا بد منها لكل من المتعلم والمعلم :

وهذه قضية أيضًا مما اشترك في الاهتمام بها كثير من الفلاسفة والمربين المسلمين، حيث رأى الإخوان أن المتعلم ينبغى له أن يتصف بسبع خصال (الرسائل، ج١، ص ٣٤٧) : أولها، السؤال، بمعنى أن يكون متشوقًا دائمًا للكشف عما يجهله، وعدم الركون إلى حالة غموض يمكن أن تكتنف موقفًا ما يحيط به . وثانى الخصال، الاستماع بعد الصمت، ذلك أن ميزة الاستماع أن يستوعب الطالب ما يقوله المعلم أو غيره، حيث يقفز البعض على المناقشة أو إبداء الرأى قبل أن ينتهى – ربما – محدثه من كلامه، وهى ظاهرة نشكو منها شكوى مرة-، ثم التفكير، وأمره معروف، ثم العمل به، وهذا جانب يلح عليه دائمًا المربون المسلمون، لعلمهم أن المسألة ليست معلومات ومعارف يتم استيعابها وتخزن في العقل، فلا بد من أن تترجم إلى واقع سلوكى في حياة المتعلم، ثم طلب الصدق من نفسه، ثم كثرة الذكر أنه نعمة من الله – تعالى-، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه .

وحتى تكتمل الصورة، فهناك خصال سلبية لا بد من التخلص منها، إذ إن الإقرار بفضل العلم، وفضل العلماء لا ينفى أن يتصف البعض ببعض السلبيات التي لا بد من بيانها حتى يسعى من يقعون في حبائلها إلى التخلص منها (الرسائل، ج١، ص ٣٤٨).

من ذلك على سبيل المثال الكِبْر والعُجْب والافتخار، وفى هذا رووا حديثًا نسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أيضًا من غير تخريج: "من ازداد علمًا ولم يزدد لله تواضعًا، وللجهال رحمة، وللعلماء مودة، لم يزدد من الله إلا بعدًا" .

ومنها أيضًا كثرة الخلاف والمنازعة فيه، والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم، وفى ذلك رووا عن لقمان وهو يعظ ابنه : يا بنى، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله -تعالى-

يحيى القلوب بنور العلم، كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء. وإياك ومنازعة العلماء، فإن الحكمة نزلت من السماء صافية، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى أنفسهم.

ولا بد أن يقف القارئ أمام مثل هذه النصيحة موقف التروى وإعمال العقل، فالاختلاف بين العلماء والمفكرين ليس شراً دائمًا، بل قد يكون علامة صحة ومظهر عافية في الفكر، لكن يمكن تقبل هذه النصيحة على أساس أنها قد تعنى ما قد يؤدى إليه الاختلاف من خصومات ومؤامرات ودسائس، فضلاً عما يعمده البعض من مكابرة وغل أسود تجاه من يخالف الرأى.

ومما قد يسىء إلى العالم أن يكون مفرطًا في التكالب على المغانم الدنيوية، على أساس أن التكالب على الدنيا يمكن أن يدفع العالم إلى عدد من الأخطاء والمساوئ، ونوعية العلماء الذين نقصدهم هنا هم في الحقيقة أطباء نفوس ومن ثم يصبح مثله مثل الطبيب المداوى غيره وهو مريض لا يرجى منه صلاح، فكيف يشفى المريض بعلاجه، وهنا يستعين الإخوان بقول منسوب إلى المسيح -عليه السلام-، وهو الأمر النادر في استشهادات العلماء المسلمين، أما هذا القول فهو موعظة وجهها المسيح إلى بنى إسرائيل: أيها العلماء، وأيها الفقهاء، قعدتم عن طريق الآخرة، فلا أنتم تسيرون إليها فتدخلون الجنة، ولا أنتم تتركون أحدًا يجوزكم فيصل إليها، وإن الجاهل أعذر من العالم وليس لواحد منهما عذر" (الرسائل، ج١، ص ٣٤٩) .

ثم إن العلم الصحيح هو الذى يؤدى على طلب الآخرة، فإذا لم يؤد إلى هذا يعتبر وبالاً على صاحبه، وحجة عليه يوم القيامة، ويبرهنون على ذلك بأن الملوك الجبابرة والفراعنة والقرون الماضية، قد كانت لهم عقول رضية وآداب بارعة، وفكر وفهم وتمييز وروية ورأى وتدبير ورياضة ورئاسة وسياسة وحكمة وصنائع عجيبة وهكذا أيضًا كان من يعاشرهم وينادمهم، ويقرب منهم من وزرائهم وكتابهم، وعمالهم وقوادهم وعلمائهم وأدبائهم، ولكنهم وجهوا تلك القوى لديهم في طلب شهوات الدنيا، والتمتع بلذاتها ونعيمها، وأهملوا أمر الآخرة، وتركوا ذكر المعاد، ولم يستعدوا له ولم يتزودوا من الدنيا، بل تركوها لغيرهم، فصارت تلك النعم وبالاً عليهم؛ وبذلك خسروا الدنيا والآخرة معًا .

وينبغى للمعلم أن يفحص أولاً مبلغ قدرات المتعلم في إدراك المعلومات والمحسوسات، وإلى أى مدى يمكن أن يصل إليه؟ ذلك أن بعضًا من الناس عندما عجزت عقولهم عن تصور حدوث العالم، وعجزوا عن معرفة العلة الموجبة لخروجه إلى حيز الوجود بعد أن لم يكن، أدى بهم هذا إلى القول بقدم العالم، وهى النتيجة التى تؤدى إلى الكفر، ذلك أنها تعنى أن العالم لم يحتج إلى خالق يوجده من عدم .

ومن أوجب ما يحسن للمتعلم التفكير فيه هو أن يقع الاختيار له على معلم ذكى، جيد الطبع، حسن الخلق، صافى الذهن، محب للعلم، طالب للحق، غير متعصب لرأى من المذاهب .

ومن أبدع ما توصل إليه الإخوان حقًّا في المسألة التعليمية هو تأكيدهم على بُعد الكسب والتعلم، وفكرتهم هنا يمكن القول بكل جرأة وعلانية أنهم سبقوا ما قال به الفيلسوف الإنجليزى الشهير (جون لوك)، حتى في استخدام التشبيه، أى تشبيه نفس الإنسان بالصفحة البيضاء، ومن خلال التعلم والخبرة، تنقش أمور على الصفحة، سيئة كانت أم جيدة، خيرة أم شريرة، لتصبح جزءًا من شخصية المتعلم.

وهنا يعلنون عبث السعى التعليمى والتربوى للشخصيات التي بلغت من العمر عتيًّا، وفقًا للمقولة العامة التي نرددها فى أيامنا الحالية من أن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، والتعلم في الكبر كالنقش على الماء، على أن يكون حد الكبر هنا هو ما يدخل في باب الشيخوخة، وليس في كبر السن هكذا مطلقًا .

ومن هنا قال إخوان الصفا : فإذا كان الأمر كما وصفت، فينبغى لك أيها الأخ أن لا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاقًا وحشية، فإنهم يتعبونك ثم لا ينصلحون، وإن صلحوا قليلا قليلا فلا يفلحون، ولكن عليك بالشباب السالمى الصدور، الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم، المريدين طريق الحق والدار الآخرة والمؤمنين بيوم الحساب، المستعملين شرائع الأنبياء عليهم السلام، والباحثين عن أسرار كتبهم، التاركين الهوى والجدل، غير متعصبين على المذاهب" .

تربية الطفل :

لأن العملية التربوية لا بد لها من مرحلة "تأسيس"، كان على إخوان الصفا أن يبذلوا قصارى جهدهم فى بيان كيفية تربية الإنسان منذ مرحلة الطفولة المبكرة، حيث تبدأ عملية التربية للإنسان منذ اللحظات الأولى للحمل به، فما قضى الله سبحانه- بأن يكون الحمل تسعة أشهر، إلا لاستكمال المقومات الأساسية للشخصية الإنسانية، التى يمكن لها، بعد أن تخرج إلى الدنيا أن تستقبل مايرد عليها من البيئة المحيطة بها: "إن مكث الجنين فى الرحم تسعة أشهر إنما هو لكى ما تتم البنية وتستكمل الصورة ..ولو أمكن تتميمها وتكميلها فى يوم واحد، لم تركت هناك يومين، ولو أمكن فى شهرين" (الرسائل، ج٢، ص ٤٢٢).

ومن هنا فإن من يشاء حظه العاثر أن يولد من غير أن تكتمل بنيته الأساسية فى الرحم، فإنه قلما ينتفع بما فى هذه الحياة الدنيا، بل يعيش عمره منغص العيش، والقياس نفسه بالنسبة إلى الدار الآخرة، فالدنيا كأنها هى الرحم، إذا عشناها وفقًا لما ينبغى أن يكون، انتقلنا إلى الآخرة آملين أن تفتح لنا أبوابها من النعيم، والعكس بالعكس .

ومما يؤكد الاهتمام الواضح لإخوان الصفا بالتربية قبل الولادة، هو تأكيدهم على ضرورة أن تخضع الحامل لرعاية الطبيب، أو على أقل تقدير أن تنتصح بما يقول به من حيث ظروف المأكل والمشرب والملبس (الرسائل، ج٢، ص٤٤٣) .

ولا تتوقف المسألة عند حد الجوانب الجسمية على أهميتها، وإنما تمتد كذلك إلى الجوانب النفسية والروحية التى يختص بها أطباء النفوس وهم الأنبياء، بما أوصوا به من سداد الطريق والتزام البعد عن المحرمات والشبهات، وهم يربطون بين الرعاية الجسمية والرعاية النفسية والروحية بقولهم : "وكما أن الأشخاص لو ساعدوا الطبيب فيما أمر وبيّن من جهة مأكولاتهم ومشروباتهم فى حالة الصحة والمرض، يستفيدون، وبمخالفتهم ذلك ينحرف مزاجهم، أما الصحيح فإلى المرض، وأما المريض فإلى طول المرض وإلى الهلاك، كذلك ها هنا الأنبياء هم أطباء النفوس وسبب الهدى وطريق المعاش، فمن مال عما أمروا به، وانحرف عما وضعوا

وبينوا، فقد ضل وأضل عن سواء السبيل" (ص٤٤٣).

وألمح الإخوان إلى أن الله لما خلق الإنسان الذى هو آدم أبو البشر، وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلا، جعل إحدى فضائله قدرته على أن يصل إلى الكثير من العلوم وغرائب المعارف، ومن أجل ذلك زوده سبحانه بعدة سبل :

- منها سبيل الحواس الخمس التى يمكن أن يدرك بها ما يحيط به فى المكان والزمان.

- ومن تلك السبل أيضًا سبيل استماع الأخبار التى ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعًا، كما ذكر - سبحانه وتعالى- فقال فى سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ .

- ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معانى الكلام واللغات والأقاويل، بالنظر فيهما عمن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان، أو من هو غائب عنه بالمكان، كما قال الله ومنّ به على الإنسان، فقال لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم- فى سورة اقرأ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾، وبهذه الفضيلة شارك الإنسان الملائكة الكرام، كما قال تعالى فى سورة الانفطار: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ ﴾.

وميّز الإخوان بين ثلاث مراحل فى نمو الطفل وتربيته، حيث لاحظوا أن تعلم القراءة والكتابة إنما يكون فى مرحلة متأخرة نوعًا، نظرًا لأن نضج الطفل يبدأ بالجانب الحسى، ثم الشفاهى، وبعد ذلك يأتى دور القراءة والكتابة، وذلك أن الطفل إذا خرج من الرحم فإنه فى الوقت والساعة تدرك حواسه ما يحيط بها من محسوسات، فيحس بالقوة اللامسة للخشونة واللين، وبالقوة البصرية النور والضياء، وبالقوة الذائقة طعم اللبن، وبقوة الشم الروائح، وبقوة السمع الأصوات .. يتم كل هذا دون أن يفهم معانى الكلام والأصوات إلا بعد حين، فأول شىء يحس باللمس فيتألم؛ لأن حاسة اللمس أعم الحواس، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أمه من غيره، ثم يميز بين الروائح فيعرف الشم . ثم يميز بين الصوت الشديد الجهير، وبين الصوت

الضعيف الخفيف . ثم يفرق بين الصور، ثم يميز على مر الأوقات بين نغمة أمه ونغمة الأب والإخوة والأخوات والأقرباء وغيرهم .

ثم شيئًا بعد شىء، على التدريج، وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها، إلى أن تتم سن التربية ويغلق باب الرضاع، ويفتح الكلام والنطق، ثم بعد ذلك تأتى أيام الكتابة والقراءة، والآداب والصنائع والرياضيات، وسماع الأخبار والروايات، والفقه فى الدين، والنظر فى العلوم والمعارف، وطلب حقائق الموجودات، والبحث عن الكائنات والاستدلال بالحاضرات على الغائبات، والمحسوسات على المعقولات، وبالجسميات على الروحانيات، وبالرياضيات على الطبيعيات، وبالطبيعيات على الإلهيات التى هى الغاية القصوى فى العلوم والمعارف، والسعادة الأبدية (الرسائل، ج٣، ص٤١٥).

مناهج التعليم :

معظم فلاسفة الإسلام أولوا قضية تصنيف العلوم اهتمامًا بالغًا، حتى لاتكاد فلسفة فيلسوف وفكر مفكر يخلو من الحديث في هذه القضية .

ونحن إذ نقول هنا "بمناهج التعليم" لا نقصد ما كان يتم داخل مؤسسات التعليم، وإنما نبسط وجهة نظر إخوان الصفا فيما ينبغى أن يتعلمه المسلم . وسوف نرى أن القائمة تتضمن العديد من العلوم التي يصعب على الشخص الواحد أن يتعلمها، وإنما هى "مائدة ضخمة" للعلوم يقيمونها أمام المتعلم، وعليه أن يتعلم منها ما يستطيعه وما يميل إليه، ومن هنا نجدهم يكتبون: "فنريد أن نذكر أجناس العلوم، وأنواع تلك الأجناس، ليكون دليلا لطالبى العلم إلى أغراضهم، وليهتدوا إلى مطلوباتهم؛ لأن رغبة النفوس في العلوم المختلفة وفنون الآداب كشهوات الأجسام للأطعمة المختلفة الطعم واللون والرائحة" .

القائمة إذن بمثابة "دليل لطلاب العلم"، على كل منهم أن يختار .

وقد صنف الإخوان العلوم إلى ثلاثة أقسام رئيسية : العلوم الرياضية، والعلوم الشرعية،

ثم العلوم الفلسفية، وراحوا بعد ذلك يفرعون من كل قسم عددًا آخر من العلوم (الرسائل، ج١، ص٢٦٦) .

أولاً – العلوم الرياضية : وهى علم الآداب التي وضع أكثرها لطالب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا، وهى تسعة أنواع : أولها : علم الكتابة والقراءة، ومنها علم اللغة والنحو، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم الزجر والفأل، وما يشاكله، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل، وما شاكلها، ومنها علم الحرف والمعاش، ومنها علم البيع والشراء والتجارات والحرث والنسل، ومنها علم السير والأخبار .

ولا شك أن القارئ لا بد أن تصيبه الدهشة مما حواه هذا القسم، صحيح أن مفهوم "الرياضيات" كما كان منذ عدة قرون لا يتطابق مؤكدًا مع مفهوم الرياضيات لدى قارئ اليوم ومربيه، لكن الأمر على أية حال لا يصل إلى حد أن تتضمن العلوم الرياضية علوم اللغة والنحو، مثلا، والشعر والعَروض، وعلم السير والأخبار، ولا ندرى حقًّا على أى أساس صنف الإخوان هذا التصنيف؟

ثانيًا – العلوم الشرعية : ويحددون مقصود هذه العلوم بأنها وضعت لطب النفس وطلب الآخرة، وهى ستة أنواع : أولها علم التنزيل، وثانيها علم التأويل، والثالث علم الروايات والأخبار، والرابع علم الفقه والسنن والأحكام، والخامس علم التذكار والمواعظ والزهد والتصوف، والسادس علم تأويل المنامات، فعلماء التنزيل هم القراء والحَفَظة، وعلماء التأويل هم الأئمة وخلفاء الأنبياء، وعلماء الروايات هم أصحاب الحديث، وعلماء الأحكام والسنن هم الفقهاء، وعلماء التذكار والمواعظ هم العباد والزهاد والرهبان ومن شاكلهم، وعلماء تأويل المنامات هم المعبِّرون .

ومعظم هذه العلوم تناسب بالفعل ما اندرجت تحته من علوم شرعية، لكن الإنسان لا بد أن يتساءل عن إدراج "علم تأويل المنامات" في مثل هذه الفئة ؟ وإذا كان قد جاء فى بعض مواضع القرآن الكريم إشارة عن قدرة نبى مثل يوسف–عليه السلام– على تأويل الأحلام، فهل يمكن أن يكون هذا مبررًا ؟

ثالثًا – العلوم الفلسفية : وهى أربعة أنواع، منها الرياضيات، ومنها المنطقيات، ومنها الطبيعيات، ومنها الإلهيات . والرياضيات أربعة أنواع : أولها الأرثماطيقى وهو معرفة ماهية العدد، وكمية أنواعه، وخواص تلك الأنواع، وكيفية نشئها من الواحد قبل الاثنين، وما يعرض فيها من المعانى إذا أضيف بعضها إلى بعض، والثانى "الجومطريا"، وهو الهندسة، وهى معرفة ماهية المقادير ذوات الأبعاد، وكمية أنواعها، وخواص تلك الأنواع، وما يعرض فيها من المعانى إذا أضيف بعضها على بعض، وكيفية مبدئها من النقطة التي هى رأس الخط، وهى في صناعة الهندسة كالواحد في صناعة العدد . والثالث: الأسطرنوميا، وهى النجوم، وهى معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج، وكمية أبعادها ومقادير أجرامها، وكيفية تركيبها وسرعة حركاتها، وكيفية دورانها، وماهية طبائعها، الرابع : الموسيقى الذى هو علم التأليف، وهو معرفة ماهية النسب، وكيفية تأليف الأشياء المختلفة الجواهر، المتباينة الصور، المتضادة القوى، المتنافرة الطبائع، كيف تجمع وتؤلف بينها، كيما لا تتنافر وتأتلف وتتحد وتصير شيئًا واحدًا، وتفعل فعلاً واحدًا أو عدة أفعال (الرسائل، ج١، ص٢٦٧) .

أما المنطقيات فهى خمسة أنواع، نلاحظ فيها، كما لاحظنا في السوابق التأثر الواضح بتصنيف أرسطو، تأثرًا وصل إلى حد استخدام المصطلحات نفسها، وأول المنطقيات : أنولوطيقا، وهى معرفة صناعة الشعر (؟!)، والثانى ريطوريقا، وهى معرفة صناعة الخطب، والثالث طوبيقا، وهى معرفة صناعة الجدل، والرابع بولوطيقا، وهى معرفة صناعة البرهان، والخامس : سوفسطيقا، وهى معرفة صناعة المغالطين في المناظرة والجدل(الرسائل، ج١، ص ٢٦٨) .

وأما العلوم الطبيعية فهى سبعة أنواع (الرسائل، ج١، ٢٧٠) : أولها علم المبادئ الجسمانية، وهى معرفة خمسة أشياء : الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة وما يعرض فيها من المعانى إذا أضيف بعضها إلى بعض . والثانى علم السماء والعالم، وهو معرفة جواهر الأفلاك والكواكب وكميتها وكيفية تركيبها وعلة دورانها، وهل تقبل الكون والفساد، كما تقبل الأركان الأربعة التي هى دون فلك القمر أم لا، وما علة حركات الكواكب واختلافها

في السرعة والإبطاء، وما علة حركة الأفلاك، وما علة سكون الأرض في وسط الفلك في المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا، وهل في العالم موضع فارغ لا شيء فيه، وما شاكل ذلك من المباحث .

والثالث : علم الكون والفساد حيث يبحث في تحول كل عنصر من العناصر الأربعة : النار والهواء والماء والأرض (التراب) بعضها على بعض .

والرابع : علم حوادث الجو ..

والخامس : علم المعادن ..

والسادس: علم النبات ..

والســـابع: علم الحيوان ...

أما بالنسبة إلى العلوم الإلهية، فهى خمسة أنواع (الرسائل، ج١، ص٢٧٢):

أولها معرفة الله – سبحانه وتعالى- وصفة وحدانيته، وكيف هو علة الموجودات، وخالق المخلوقات، ومعطى الفضائل والخيرات ..

والثانى : علم الروحانيات، وهو معرفة الجواهر البسيطة العقلية، العلاَمة الفعالة التي هى ملائكة الله، وخالص عباده ..

والثالث، علم النفسيات، وهى معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية، وتربيتها للحيوان والنبات..

والرابع، علم السياسة، وهى خمسة أنواع : أولها السياسة النبوية، والثانى، السياسة الملوكية، والثالث :السياسة العامية، والرابع :السياسة الخاصية، والخامس : السياسة الذاتية، ويهمنا هنا هو النوعان الأخيران: فالسياسة الخاصية، هى معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته، ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه وأقربائه، وعِشرته مع جيرانه، وصُحبته مع إخوانه، وقضاء حقوقهم، وتفقد أسبابهم، والنظر في مصالحهم من أمور دنياهم وآخرتهم .

obeikandl.com

أما السياسة الذاتية، فهى معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه، وتفقد أفعاله وأقاويله في حال شهواته، وغضبه ورضاه، والنظر في جميع أموره .

ففى هذين المجالين، تتجلى وثاقة الصلة بأمور التربية والتعليم، وإن كان أثر أرسطو أيضًا واضحًا بصورة لا بد أن تلفت النظر.

والخامس، علم المعاد، وهو ما يتصل بالبعث والعالم الآخر .

التربية الأخلاقية :

المبادئ العامة التى بنى عليها إخوان الصفا موقفهم من التربية الأخلاقية مقتبسة من الديانات المختلفة، سواء كانت أديانًا توحيدية أو مجوسية، ومن المؤكد أنهم جنحوا إلى الزهد والروحانية، فهم يرون أن نزول النفس فى الجسم أدى إلى ضياع كمالاتها، فهم يحاولون بالمعرفة والفضيلة إثارة شوقها إلى مصدرها السامى، وخير ما تتحلى به الحب القوى لعالمها الأول . وفى وسع الإنسان الوصول إلى مرتبة من التسامى تقارب مرتبة الملائكة، وذلك بأن يترك كل عمل قبيح وخلق مذموم ويكتسب أضدادها من الأخلاق الحميدة، ويتعلم علومًا حقيقية، ويعتقد آراء صحيحة، وعندئذ يصبح صالحًا فاضلاً، وتصير نفسه ملكًا بالقوة، فإذا فارقت الجسد عند الموت أصبحت ملكًا بالفعل (جبور عبد النور، ص ٤٧).

بيد أن اكتساب الخلق الطيب والابتعاد عن السيئ ليس بالأمر السهل على الإنسان لأنه يتجاوز فى معظم الأحيان إرادته واختياره، ويتقرر بعوامل وقوى تتعداه، ذلك أن أخلاق الناس وطبائعهم تتأثر بأربعة عومل مختلفة (الرسائل، ج١، ص ٢٩٩) :

أحدها: من جهة أخلاط أجساد الناس، ومزاج أخلاطها .

وثانيها: من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها .

وثالثها: من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم ومن يربيهم ويؤدبهم .

ورابعها: من جهة موجبات أحكام النجوم فىأصول مواليدهم ومساقط نطفهم.

ويعتبر الإخوان هذا العامل الرابع هو الأصل، والباقى إنما هو فروع له .

أما من حيث العامل الأول، فمن الشائع فى كتابات الفلاسفة القدماء أن الإنسان مؤلف من أربعة أخلاط: ماء، وتراب، ونفس، وروح، ويتأتىعنها أن يكون جسمه رطبًا أو يابسًا أو حارًّا أو باردًا، فالحار الطبع هو فى الأكثر شجاع القلب، وسخى، مغامر، قليل الثبات والتأنى، مستعجل الحركة، وشديدالغضب، وذكى، وجيد التصور . والبارد الطبع هو على الأغلب بليد الذهن، ثقيل الروح . والرطب الطبع هو عادة بليد، قليل الثبات، لين الجانب، سمح النفس، سريع النسيان، واليابس يغلب عليه الصبر فى الأعمال، والثبات فى الرأى والحقد والبخل (الرسائل، ج١، ص٢٩٩).

أما بالنسبة إلى العامل الثانى، فإن مواقع البلدان تختلف من حيث قربها من المناطق الحارة أو الباردة، وتتفاوت من حيث وقوعها فى أعالى الجبال أو فى السهول والأودية، وقرب الشواطئ أو فى الصحارى . ولكل نوع منها أثر خاص فىخلق الإنسان الذى يقطنه، وليس إشراق الكواكب عليها واحدًا فى جميع المناطق، فإن بعضها معرض لمطالع البروج أكثر من بعضها الآخر، وهذا كله يؤدى إلى اختلاف أمزجة الأخلاط، فيستتبع اختلاف أخلاق الناس وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ومذاهبهم، فالذين يولدون فى البلدان الحارة، ويستنشقون هواءها، تغلب على أجسامهم البرودة، والذين يولدون فى الأقاليم الباردة، وينشئون فيها تغلب عليهم الحرارة، ونتج عن هذا العامل أن أهل الجنوب من الحبشان والزنج وسكان الهند غلبت على بلادهم الحرارة، فاحترقت ظواهر أبدانهم، واسودت جلودهم، وبردت بواطن أبدانهم، ونلمس عكس هذا فى أهل البلدان الشمالية (الرسائل، ج١، ص٣٠٣).

فإذا ما انتقلنا إلى العامل الثالث، والذى يظهر فيه أثر التربية والبيئة الاجتماعية والدينية، فإننا نجد فعالية هذا العامل واضحة وجلية، فإذا نشأ الولد مع الشجعان والفرسان يتطبع بعاداتهم، أما إذا نشأ مع جماعة من ضعفاء الإرادة، أصحاب سيئات، لا يلبث أن يسير على خطاهم ويفعل فعلهم، فالآباء والأمهات والإخوة والأصدقاء، والمعلمون وأصحاب الأديان يكيفون شخصية

الإنسان، ويطبعونها بطابعهم الخاص، ويأتون على ذلك بأمثلة مؤيدة لرأيهم، منها مثال اليهودى والمجوسى، المترافقين (الرسائل، ج١، ص٣٠٨)، ذلك أن يهودياً من أهل أصفهان كان مسافرًا من بلد إلى آخر وليس معه دابة ولا زاد، فلقى فى طريقه مجوسياً من أهل كرمان راكبًا بغلة، وعليها ما يحتاج إليه المسافر من زاد ونفقة، فتحدثا عن الأديان، وذكر اليهودى أن دينه يأمره بالعطف على الذين يعتقدون اعتقاده، وإهلاك المخالف له . وذكر المجوسى أن دينه يعلمه فعل الخير لمن وافقه فى عقيدته ولجميع البشر على السواء، وأن من يسىء إليه يترك أمر معاقبته لله، فطلب اليهودى من المجوسى أن يطعمه، وأن يركبه البغلة ففعل. وما إن صار اليهودى على ظهرها حتى حركها وترك رفيقه وولى هاربًا، فدعا المجوسى ربه أن ينتقم له، فرمت البغلة راكبها أرضًا، ولحق بها صاحبها، ومع ذلك، فقد حمل اليهودى معه وتعهده بالخير رحمة به؛ وذلك لأنه نشأ على مذهب يعلمه مقابلة الإساءة بالإحسان .

أما بالنسبة إلى الأثر الأكبر حقًا فى نظرهم، فهو للنجوم والكواكب، وإليها مرد البواعث السابقة؛ لأنها تؤثر فىتركيب الأخلاط وتناسقها أو تغلب أحدها على الآخر. وفى رأى الإخوان أن الذين يولدون فى البروج النارية، أى فى الأوقات التى تكون فيها الأرض معرضة لتأثير الكواكب النارية مثل المريخ وقلب السد وما شاكلها، تغلب عليهم الحرارة وقوة الصفراء، والذين يولدون تحت تأثير الزهرة والشعرى اليمانية تغزر فى أبدانهم الرطوبة والبلغم، والذين يولدون تحت تأثير البروج الترابية، فى الأوقات التى يستولى عليها زحل، وما شاكله من الكواكب الثابتة، تغلب على أبدانهم اليبوسة والمرّة السوداء، والذين يولدون تحت تأثير المشترى يغلب على أبدانهم الدم والاعتدال. ويضيفون إلى ذلك أن هذا العلم لا يعرفه بدقة إلا من اطلع على علم التنجيم، وعرف مدى تأثير العالم الأعلى فى عالمنا الأرضى (الرسائل، ج١ ص ٣٠٤).

ويقسم إخوان الصفا الأخلاق قسمين: أحدهما يجعلونه مركوزًا فى النفس، أى مفطورًا فيها لا أثر فيه لكسب واختيار، وقسمًا يدعونه مكتسبًا هو الذى يكون محل التغيير والتطوير السلوكى. ولعل هذا يتسق مع رأيهم فى العوامل المؤثرة فى أخلاق الإنسان، فإذا كان

منها العناصر المادية المكونة للإنسان، وكذلك البيئة الفيزيقية، فضلاً عن حركة الأفلاك والكواكب، تصبح الأخلاق الإنسانية غير خاضعة كلية للتربية والتنشئة، ومن هنا يأتى قولهم "اعلم يا أخى .. أن الأخلاق المركوزة فى الجبلة هى تهيؤ ما فى كل عضو من أعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال، أو عمل من الأعمال، أو صناعة من الصنائع، أو تعلم علم من العلوم، أو أدب من الآداب، أو سياسة من غير فكر ولا روية" (الرسائل، ج١، ص٣٠٥).

أما بالنسبة إلى الأخلاق المكتسبة، فهى تبدأ من بعد الولادة، وهى مستمرة حتى ممات الإنسان، ومنها يكون الإنسان قابلاً لأن يتعلم جميع الخصال والأخلاق، سواء المحمود منها أو المذموم، حيث خلق المولى- عز وجل- فى الإنسان "استطاعة لعمل الخير، وإن كان الإنسان يمكن له، بهذه الاستطاعة أيضًا أن يعمل الشر" .

وبينما نرى الأخلاق المركوزة على وجه العموم ثابتة فى طباع أصحابها، نجد الأخلاق المكتسبة تختلف بتقلب الأحوال على الناس، ذلك لأن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى طبعوا عليها، وبحسب عاداتهم التى نشئوا عليها، وبحسب الآراء التى اعتقدوها، وبحسب نشأتهم على ديانات آبائهم ومعلميهم .. ومن يربيهم ويؤدبهم (عمر فروخ، ص ١٥٦) .

وإذا نشأت الأخلاق المكتسبة بعناصر البيئة الأولى فإنها لا تثبت على ما عليه أصلا؛ لأن الإنسان كثير التغير، لا يثبت على حال واحد، كما نرى فى أحوال بعض الناس من تحول من فقر إلى غنى أو العكس، ومن عزوبة إلى تزويج، أو من ذل إلى عز، أو من مذهب إلى مذهب، أو من شباب إلى شيخوخة، أو من صحة إلى مرض .

ومن هنا يمكن القول بإمكان أن ينتقل الإنسان من خلق إلى آخر، من خلق مذموم إلى خلق ممدوح، أو من خلق ممدوح إلى خلق مذموم .

وربما يشير كلام الإخوان فى هذا الشأن إلى أن الانتقال من خلق إلى آخر إنما يكون فى الأخلاق المكتسبة بالدرجة الأولى، لكنه يمكن أن يحدث (أحيانًا) فى الأخلاق المركوزة .

وفى الوقت نفسه، فـإن كلاً مما تتضمنه الأخلاق المكتسبة والمركوزة من أخلاق، إذا طال بها الأمد، فإن تغييره لا يكون سهلاً، وفقًا للمثل الشهير "من شب على شىء شاب عليه"، فإذا كان هذا مفهومًا بالنسبة إلى الأخلاق المركوزة، فإننا يمكن أن نتفهمه فى الأخلاق المكتسبة من ملاحظة أن دوام أخلاقيات بعينها وعادات محددة، سنوات طويلة، يرسخان فى الشخصية، بحيث تبدو لنا وكأنها تحولت إلى "طبع"، وهو الأمر الذى يمكن ملاحظته جيدًا لدى كبار السن (عمر فروخ، ص ١٥٧).

فإذا ما كانت هناك ضرورة ماسة لتغيير خلق طال عليه الأمد بحيث ثبتت أركانه، سواء من الأخلاق المركوزة أو المكتسبة، فلا بد هنا من قدر من القمع والقهر، بأن تُقَاوَم الأخلاق الرديئة والأفعال القبيحة بأضدادها من الأفعال الجميلة، ومثال ذلك أن نجد إنسانًا يتسم بالحدة، التى هى من قوى النفس الغضبية، فلا بد عندئذ من قهر هذه النزعة بضدها ألا وهو "الحلم"، وكذلك بالنسبة إلى "العجلة" التى تُقهر "بالأناة".

وأدرك الإخوان أن الإنسان لا يسهل عليه ترك خلق إلى غيره من غير أن يقتنع بصواب ما يعمل، ذلك لأن من العوائد غير الطيبة فى الإنسان قعود همته عن أن يترك حالاً طبع عليه فى الحاضر من أجل حال مستقبلى غائب، لكن الإقناع يمكن أن يبدل الأمر، فلا يمانع الإنسان فى التغيير.

مراجـــع :

١- ت.ج.دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة وتعليق: محمد عبد الهادى أبو ريده، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤م.

٢- جبور عبد النور : إخوان الصفاء، بيروت، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر العربى، ١٩٥٤م.

٣- إخوان الصفا : الرسائل، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٦م.

٤- عبد الكريم قاسم سعيد : إخوان الصفا وفلسفتهم فى الألوهية والوجود، د.م، اتحاد الأدباء اليمنيين، د.ت

٥- عمر فروخ : إخوان الصفا، بيروت، دار الكتاب العربى، ١٩٨١م، ط٣ .

٦- محمد جواد رضا: أئمة الفكر التربوى الإسلامى، الكويت، ذات السلاسل، ١٩٨٩م.

٧- محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

٨- محمود إسماعيل عبد الرازق : إخوان الصفا، رواد التنوير فى الفكر العربى، القاهرة، دار قباء، ١٩٩٨م.

٩- نادية جمال الدين : فلسفة التربية عند إخوان الصفا، القاهرة، المركز العربى للصحافة، ١٩٨٣م.